

إسهامات علماء السودان في كتابة التاريخ (بروفسور محمد إبراهيم أبوسليم أنموذجاً)

أستاذ التاريخ – جامعة أم درمان الإسلامية

أ. د. تاج السر سيد أحمد العراقي

المستخلص:

تهدف الدراسة لتوضيح إسهامات علماء السودان في كتابة التاريخ بالتركيز على البروفسور محمد إبراهيم أبوسليم وذلك لدوره المهم والرائد في مجال التاريخ السوداني، والمتتبع لمسيرة البروفسور أبو سليم يجد أنها حوت الكثير من الدراسات والبحوث التوثيقية، والتي قدمت خدمات جليلة للمختصين والباحثين والمهتمين بتاريخ الثورة والدولة المهدية بصورة خاصة والتاريخ السوداني على وجه العموم. تنبع أهمية الدراسة من كونها تسلط الضوء على شخصية سودانية أسهمت في مجال الدراسات المهدوية والتاريخية بقدر وأفرمن العمل العلمي الوثائقي الرصين والذي أصبح واحد من معالم المكتبة السودانية والعربية. اتبعت الدراسة المنهج التاريخي الوصفي التحليلي للمتتبع شخصية البروفسور محمد إبراهيم أبوسليم، والخروج بعدد من النتائج منها: دوره الكبير والواضح في التعريف بتاريخ المهدية والسودان من خلال الوثائق، نشره لعدد كبير من الكتب الوثائقية المصدرية الأمر الذي أسهم أن تكون مرجع رئيس للبحوث والدراسات في مجال التاريخي المهدوي والسوداني.

Abstract:

The study aims to clarify the contributions of Sudanese scholars in writing history by focusing on Professor Muhammad Ibrahim Abu Salim for his important and pioneering role in the field of Sudanese history. The history of the revolution and the Mahdist state in particular, and the Sudanese history in general. The importance of the study stems from the fact that it sheds light on a Sudanese personality who contributed to the field of Mahdist and historical studies as much as and fortified the discreet scientific

documentary work, which became one of the landmarks of the Sudanese and Arabic library. The study followed the historical, descriptive, and analytical method to trace the personality of Professor Muhammad Ibrahim Abu Salim, and came up with a number of results, including: his great and clear role in defining the history of Mahdia and Sudan through documents, his publication of a large number of source documentaries, which contributed to being a major reference for research and studies in the field. The Mahdist and the Sudanese Historic

مقدمة:

يشترط عبدالرحمن بن خلدون -في مقدمته- في المؤرخ أن يكون عالماً بقواعد السياسة وطبائع الجودات، واختلاف الأمم في البقاع والأمصار والسير الأخلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الأحوال .. إلخ. ويشترط السخاوي -في (التبر المسبوك)- العدالة مع الضبط التام والتحري وعدم المداينة، وأن يكون عارفاً بما ينقله عن غيره، وأن يكن متحرزاً من وقوع المجازف والبهتان، معروفًا بالصلاح والتقوى.

فالتاريخ المثالي في نظر المؤرخ هو إجلاء حقيقة تاريخية غير معروفة، أو تصحيح حقيقة تاريخية خاطئة. والتاريخ يحتل مكانة مرموقة في عصر يتميز بتقدم العلوم. ولقد بذل المؤرخون -وهم طبقة من العلماء- جهداً شاقاً في نقل التاريخ من مفهومه المتمثل في الخطابات والأساطير إلى مفهومه الحديث المتمثل في دراسة التجربة الإنسانية بمعناها الشامل، والبحث عن أسبابها الحقيقية في ثنايا التطور الحضاري للإنسان.

بدايات:

منذ بزوغ عصر السودان الحديث -عند ازدهار الدولة الإسلامية في السودان- ممثلة في سلطنة سنار الإسلامية، وإلى يومنا هذا، ظهر في السودان علماء جهابذة برعوا في شتى فنون المعرفة الإنسانية، علوماً نقلياً كانت أم علوماً عقلية. وقد سجل هؤلاء العلماء الأحداث المعاصرة، والوقائع السابقة لعصرهم بكل أمانة ودقة على الرغم مما كان يجتاح البلاد -من وقت لآخر- من محن وابتلاءات، فهي أيضاً ظاهرة كانت تستدعي التنقية والتحصيص والدراسة المتأنية، لأنها ظهرت في فترات ساد فيها الجهل والظلام، وعمت فيها البدع

الشيطنانية، وانتشرت فيها الخرافة والدجل، استدعت ظاهرة التنقية والتمحيص - كما سبق القول. وقد بذل علماء السودان - وما زالوا - يبذلون جهداً مقدراً في كتابة موضوعات تخص تاريخ الإسلام وتاريخ السودان في العصور المختلفة. وأبرز مثال لهؤلاء: الفقيه محمد النور بن ضيف الله (صاحب الطبقات)، كاتب الشونة الشيخ أحمد بن الحاج أبو علي، وشيخ المؤرخين السودانيين المعاصرين المؤرخ محمد عبدالرحيم، ومع هؤلاء علماء ومؤرخون كثر في بلادنا الحبيبة، كتبوا كتابات قيمة في الأدب والتاريخ والاقتصاد والدراسات الشعبية والعقيدة والجغرافيا والعلوم السياسية. وكلها كتابات أظهرت فائدتها العلمية والتاريخية، وقدمت فائدة لعلم التاريخ والكتابة فيه، وتعتبر إضافة لها قيمتها الثابتة التاريخية وثقلها العلمي، لأن أولئك العلماء استقوا مادتهم من مصادرها الأصلية، ورجعوا إلى الأصول والجذور، بحثوا ونقوا، وكتبوا دراسة قيمة مفيدة لباحث التاريخ بوجه عام والتاريخ الإسلامي وتاريخ السودان بوجه خاص. ومنهم من يمثل أصحاب المدرسة الحديثة، والتي تدعو إلى التحليل في وقائع أحداث التاريخ وتقويمها، والبعد عن دائرة السرد التي تحتاج إلى تدقيق وتمحيص والخروج بحقائق موضوعية تعمل على غرس القيم الروحية والمفاهيم الأخلاقية والسياسية، وتحمل مفاهيم تاريخية أو قيماً تاريخية لأن التاريخ حركة دائبة من الأحداث المتفاعلة بين الإنسان وبيئته في جميع المجالات الإقتصادية الإجتماعية وغيرها. ولقد صاحب التطور الحضاري الحديث تطور مماثل في مفهوم التاريخ وأسلوبه ومنهجه. ولا يزال مجال الكتابة في التاريخ مفتوحاً أمام العلماء والمجتهدين، وكل ما في الأمر هو أنه مطلوب ممن يتصدى في جوانب التاريخ المختلفة، أن يكون أميناً، وأن يكون صادق الحس التاريخي، وعلى قدر كاف من صدق العقيدة، ومدرراً لأجواء العصر الذي يتصدى فيه للكتابة من جهة أخرى. وفي هذه الدراسة اخترت نماذج لعلماء علوم وفنون مختلفة في المعرفة مثل الأدب والتاريخ والقانون والفقه والدراسات الشعبية، وأسهموا وأبدعوا وقدموا الكثير في كتاباتهم ومحاضراتهم وندواتهم لعلم التاريخ، إلا أن الحظ الأوفر منها سيحظى به عدد محدود لأنه يتعذر علي الكتابة عن الآخرين لكثرتهم وضيق المجال. فالدراسة الشاملة تحتاج إلى عمق ودراسة أكثر ومجال أرحب وأوسع. والتركيز على فئة بعينها لا يقلل من جهد الآخرين بأي حال من الأحوال، ولا من القيمة العلمية التي جاءوا بها، فكلهم امتاز بالأمانة العلمية والدقة الموضوعية. كما أن معظمهم تكبد المشاق، وتحلى بالصبر، ولم تمنعه وعورة البحث ولا المصاعب أو العقبات عن مواصلة البحث والعمل فيه، بل لم توقفه عن سعيه ندرة المصادر والمعلومات، ولم

تصرفه عن عمله غموض الوقائع والحقائق العلمية والتاريخية، واختلاطها أو اضطرابها، ولم يتعجلوا لنيل منفعة، لأن ذلك سيكون على حساب العلم والحقيقة التاريخية، بل كلهم أو معظمهم التزم بمنهج البحث العلمي المرسوم، وتمتعوا بالثقافة اللازمة، وتوفرت لديهم ملكة النقد، مع الفحص والإستقراء. وعلى الرغم من أن الظروف الملائمة للبحث والدراسة التي تمكن الباحثين من العمل والإستمرار فيه قد لا تتوافر إلى أن علماء السودان -بصفة عامة - استطاعوا أن يؤثروا بصورة أو بأخرى في الظروف المناسبة في مجرى التاريخ. ومن هؤلاء أذكر:

بروفيسور محمد إبراهيم أبو سليم (1927-2004م)

في كتاب (تاريخ الخرطوم) يعرفنا المؤلف المحقق (البروفيسور محمد إبراهيم أبو سليم) بالتاريخ السياسي والإجتماعي لهذا البلد وبتطوره المعماري، معتمداً في ذلك على أوثق المصادر التي أمكنه العثور عليها وأقدم الخرائط التي حفظتها لنا الأيام، وقد وصف أبو سليم الخرطوم بأجزائها الثلاثة: الخرطوم، والخرطوم بحري، وأمدرمان، وصفاً دقيقاً وصورها تصويراً واقعياً، مما لا غنى عنه لكل متطلع لمعرفة الخرطوم تاريخياً وجغرافياً واجتماعياً. التاريخ هو علم الوثائق، والمصادر والمراجع هي المصدر العلمي الذي يستمد منه الباحث معلوماته في كتابة بحثه. وكل كتابات المؤرخ أبو سليم تعتمد على الوثائق والمصادر الأصلية، والوثائق بالنسبة للكتابة التاريخية تعد بمثابة الوقود الذي يحتاج إليه المحرّك لتأدية وظيفته، خاصة وأن الطريقة الحديثة في كتابة التاريخ تعتمد على نشر الوثائق وتمحيصها لأنها بمثابة لب التاريخ. فالمؤرخ لا يستطيع التعرف على الماضي مباشرة إلا من خلال الآثار التي خلفها وراءه، وكتابة التاريخ الصحيحة لا تبدأ إلا حين تكون وثائق واضحة وجديرة بالثقة. وتأتي الوثائق في المقام الأول بين مصادر التاريخ الإسلامي والحديث، لأنها تحتوي على مادة تاريخية حيّة غير قابلة للتغيير، مثل: الأحكام والفتاوى والمعاهدات والرسائل، وسجلات العطاء والأوامر القضائية والمالية وغيرها. ولو تمعنّا النظر وقمنا بالتدقيق اللازم لكتب أبو سليم وأبحاثه، نجد أن معظمها من هذا النوع الذي اخترته منها على سبيل المثال.. كتبه التالية تقف شاهداً على ذلك مثل:

(الفونج والأرض، الفور والأرض، الأرض في المهديّة، تاريخ الخرطوم، الشخصية السوداني، مؤرّخون وشعراء وأدباء في السودان، بحوث في تاريخ السودان، أدوات الحكم والولاية في السودان، الساقية، النخيل، الإبانة النورية في شأن الطريقة

الختمية (تحقيق)، في طريقة أهل الله والسير ساهل (تحقيق)، تاريخ السودان لنعموم شقير (تحقيق)، مذكرات عثمان دقنه (تحقيق)، الآثار الكاملة للإمام المهدي (تحقيق)، تاريخ سينا لنعموم شقير (تحقيق)، ديوان توفيق صالح جبريل (تحقيق بالاشتراك). وقد فطن أبو سليم إلى أهمية الوثائق، وساعدته مهنته وإمكاناته في البحث، مع الدقة والضبط والتحري في تصفّح الأوراق والوثائق عن كتابة التاريخ حتى يهتدي إلى الحقائق التاريخية الموثوق بها.

لقد كانت الحقيقة التاريخية ماثلة دائماً أمام محمد إبراهيم أبو سليم، لذلك نجده يتفادى الجانب الذاتي أو الشخصي ويلتزم جانب العالم المؤرّخ، بالبحث عن الحقيقة شديدة التعقيد، وتجنب الوقوع في الأحكام السطحية، والبحث عن الأسانيد الصادقة غير المتحيّزة، وتتبع أفكارها ومعانيها بصدق وموضوعية، ومن هنا جاءت إسهاماته -كعالم من علماء السودان- في كتابة التاريخ. ولد محمد إبراهيم أبو سليم في اليوم السادس عشر من شهر يوليو عام 1927م في قرية سركىمتو بريف حلفا القديمة بالإقليم الشمالي. تلقى تعليمه الأولي والأوسط في مدرستي عبري وحلفا، والثانوي بمدرسة وادي سيدنا. تخرّج في كلية الخرطوم (جامعة الخرطوم حالياً) في عام 1955م، فور تخرّجه التحق بخدمة محفوظات السودان التي تطوّرت على يديه من مكتب صغير في وزارة الداخلية حتى غدت دار الوثائق القومية التي تلعب دوراً نشطاً في فلسفة التاريخ عام 1966م، له عدة مؤلفات وبحوث في التاريخ والتراث والاجتماع والأدب والأرشيف والوثائق باللغتين العربية والإنجليزية، من أشهرها: الحركة الفكرية في المهديّة، تاريخ الخرطوم، أدوات الحكم والولاية في السودان، ديوان أفق وشفق (تحقيق)، ديوان ابن عمر (تحقيق)، العبادي، الحسين زهرا... وغيرها.

الأنشطة العلمية والأكاديمية:

عضو بمجالس ولجان جامعية متعددة، عضو لجنة تاريخ الأمة العربية، وترأس عدداً من اللجان القومية أهمها لجنة تقييم مديريات السودان، وأسهم في بناء الحكم المحلي. أستاذ زائر بجامعة الخرطوم 1967، وأستاذ علم الوثائق وعلم الأرشيف، ورئيس قسم الوثائق والمكتبات بجامعة أمدرمان الإسلامية (1975-1981م)، وأستاذ زائر بجامعة النيلين بدرجة أستاذ (1955-1996م)، ودرس بها التاريخ والأرشيف والوثائق، أعد تقارير لحكومة السودان في عدة شؤون أهمها المشاكل القبلية وأمور الحدود. ترأس الجمعية التاريخية السودانية، وعضو الأمانة العامة للمؤرّخين العرب، وعضو المجلس القومي للأدب والفنون. ويعتبر حجة في تاريخ المهديّة ونظامها. حقق كثيراً من الأدبيات، ما جعله رائد التحقيق في السودان، وأنشأ مركز أبو سليم للدراسات.

في مجال الأرشيف:

أحد مؤسسي الفرع الإقليمي العربي للمجلس الدولي للأرشيف ورئيسه وأمينه العام لعدة دورات. شارك في مؤتمرات في عدة بلدان عربية، كما شارك في عدة مؤتمرات للمجلس الدولي للأرشيف، وشارك في أنشطة لجانته وأنتخب نائباً لرئيسه، نال العضوية الشرفية في المجلس الدولي للأرشيف، واشترك في مؤتمرات ولجان اليونسكو. اشترك في الحلقة الإقليمية لشرق ووسط وجنوبي إفريقيا للمجلس الدولي للأرشيف بلوساكا، وانتخب عضواً في لجنته التنفيذية. عاون في إنشاء وتنظيم دور الوثائق في بعض الدول الإفريقية منها المملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة والكويت وقطر وتنازانيا بطلب من اليونسكو، وزار وثائق العراق والدارة بالرياض - المصرية - دار الكتب المصرية - البريطانية - اللوردات ببريطانيا - الفرنسية - الأمريكية - الفيدرالية - مكتبة الكونجرس - تونس - المغرب - ليبيا - إيطاليا - وحدة أرشيف السودان بجامعة دراهام.

الأوسمة ومبادرات التكريم:

1. وسام الجدارة تقديرًا لجهوده في إنشاء دار الوثائق عام 1981م.
 2. وسام العلم والآداب والفنون الذهبي تقديرًا لأعماله العلمية عام 1981م.
 3. وسام الحكم الإقليمي الفضي تقديرًا لإسهامه في بناء الحكم الإقليمي في السودان 1984م.
 4. وسام الإنجاز السياسي تقديرًا لإسهامه في مؤتمر الحوار الوطني حول قضايا السلام 1989م.
 5. كرّمته هيئة شؤون الأنصار بندوة ومهرجان شعبي كبير بمناسبة تقاعده وتقديرًا لأعماله العلمية في تاريخ المهديّة.
 6. كرّمته الدولة عند تقاعده عام 1998م بحفل كبير أقيم بقاعة الصداقة بالخرطوم لخدمته الجليلة، ومنحته وسام النيلين من الطبقة الأولى.
- مما تقدم، تظهر عظمة الإنجاز وتؤكد حقيقة أن من يتصدى للكتابة في التاريخ لا بد أن يتمتع بالثقافة والإعداد والخبرة اللازمة للنجاح. وقد نجح أبو سليم في نشر مجموعات ضخمة من الأصول التاريخية التي عملت على تشجيع الدراسات التاريخية، وبذل الجهود لإيجاد بيئة علمية صحيحة تعمل للعلم والمعرفة، وتضع تقاليد وطيدة وراسخة في مجال التاريخ والتوثيق والأرشيف، وتقوم ببعض الواجب نحو العلم والوطن والتاريخ - رحم الله أبا سليم.